نادي القصة

العدد الرابع ـ اغسطس ١٩٧٠ ـ الثمن ٥ قروش

ابتسامة اليه

بقلم أبو المعاطى أبو النجا

كان من المقرر أن يسافر الاستاذ محمد عبد الحليم عبد الله مع وفد الأدباء الذى زار ألمانيا فى شهر يونيو الماضى ومنذ علم بهذا القرار أبدى اعتذاره عن السفر ، وحين سألته عن الاسباب حدثنى عن انشغاله برواية لا يحب أن يتركها قبل أن يتمها ، وعن ظروف عائلية تحتم وجوده فى القاهرة فى شهر يونيو ، ولم أقتنع بالاسباب التى ذكرها ، وفى كل مرة جلست معه كنت أحاول اقناعه بشيئين ، بالعدول عن اعتذاره وبأن يغير سفره من المانيا الى بولندا ليكون لى حظ رفقته فى تلك الرحلة ولاول مرة يصر الاستاذ عبد الحليم على رأيه أصرارا بدا لى غريبا بالنسبة لشخصه كما أعرفه !

قلت له : كيف تقاوم اغراء الرحلة الى أرض جديدة ؟ وهل الفنان سوى رحالة لا يمل البحث والاكتشاف ؟؟

قال وعلى شفتيه ابتسامة فيها ظل من المرارة والسخرية : سأبقى هنا فى انتظارك ، فى انتظار أن تعود وتحدثنى عن رحلتك وكشوفك !؟

ولم أصدق شعورى بما أسمع ، قلت فى محاولة أخيرة يائسة : لو جئت فسوف ترى ما لا أراه ، وتعود بما بما لا أعود به !

وفى هذه المرة لم يرد ، اكتفى بهز رأسه وكتفيه فى حركة يعرفها من يعرفونه !

حركة رحالة مل الرحلة ، وكأنه لم يعد يجـــد فيها ما يستحق العناء أو الفضول أو الشوق !!

لحظتها لم أكن ولم يكن يعرف أن القدر يعد له رحلة الى بعيد ٠٠! رحلة خارج الزمان والمكان ، حيث لا عناء ولا فضول ولا شوق ٠٠٠ رحلة تبدأ حين يلوح أن كل شيء ينتهي فجأة !!

ومنذ تلك اللحظة لم ألح عليه فى موضوع السفر ، احترمت رغبته ، وان كنت لم أفهمها تماما !

ذلك أن عبد الحليم عبد الله الذى قدر لى أن أعرفه عن قرب كفنان وكانسان، كان أهم ما يميزه حبه العظيم للحياة ، وفى هذا الحب القوى العنيف يكمن الكثير من أسرار فنه وأسرار حياته !

لم يكن حب عبد الحليم عبد الله للحياة حب الثائر الذى يريد أن يغير ذاته حتى ترتفع الى ذات من يحب ويعبد ، ولاحب الرجل العملى الذى يقيس ويوازن بين الوسائل والغايات حتى يلتقى بمن يحب أو بما يحب فى منتصف الطريق !!

ولكن حبه للحياة كان مزيجا معقدا من هذا كله ، فهو لم يقنع بحب الرجل العملى ، ولم يغامر بحب الثائر أو المتصوف ، وفى مكان من قلبه كانت ترقد بذور الثائر والمتصوف معا ، تتغذى بحب ملتهب ، وترتوى بعصارة قلب مشبوب ، وترتفع على أجنحة خيال محلق يرى فيمن يحب كما يحب! ٠

تدفعه بذور الثورة الى الاقبال على الحياة ، وتشده بذور التصـــوف الى الزهد عنها !

ولكنه كان دائما ذلك العظيم الذى يبحث عن بكارة الاشـــياء والعواطف والقيم والأفكار !

وروعه قصور الحياة ، وقصور البشر ، فكانت آلامه عظيمة لان آماله كانت كحبه بغير حدود ، وكقلبه معلقة بين السماء والارض !!

وحين كانت النهايات الآسيفة تجيء ، وتفجعه الصورة فى المثـال ، كان يفقد سعادته دون أن يفقد أمله ، لان هذا الامل لم يكن ابنا لفكرة عن الحياة أو مجرد خبرة بها ، بل كان وليد قلبه وفطرته ولانه قدم من القرية فقد ظلت فيه صلابة الفلاح الذى يشق طريقه بالفأس بين الصخور ، ولكن القرية التى منحته صلابة الروح هى نفسها التى حرمته صلابة الجسد ، فتعذب ذلك الجسد بما فى روحه من عناد وبأس !!

وأمام قصور الحياة تحول الحب العظيم الى شك عظيم وتحولت الحياة الى خائنة كتب قصتها فى كل ما كتب ٠

وكان الصراع الحاد بين الحب والشك بين الثقة وفقدان الثقة بين كمـال الخيال ونقص الواقع هو مأساة حياته وموضوع فنه !

ومن هذا الصراع اكتسب فنه حرارته الخاصه وبريقه الخاص ، ومن حدة هذا الصراع اكتسبت لغته شعرها الشجى ، وصورها الغنية المركبة التى تتلاشى فيها الحدود بين الحلم والواقع وبين المادة والفكر وبين الطبيعه والانسان !!

ولم يكن وعيه بقصور الحياة هو وحده مصدر شكه العظيم بل كانت هناك تجربة قديمة ترجع الى طفولته ، الى تلك الفترة المبكرة التى تصنع جزءاكبيرامن اللاشعور ، مرة روى لى تلك التجربة !

فى بيتهم الريفى القديم كانت تعيش مع العائلة أرملة فقيرة ، تعمل مع الاسرة ترعى الحيوانات الصغيرة وتنظف البيت وتلاعب الاطفال ، ومثل هـــذه السيدة فى مثل هذا الوضع فى بيوت الريف فى الاجيال الماضية لم تكن تعـامل كخادمة بل كانت تتحول الى أم ثانية للاطفال وربة للبيت وبالنسبة له أصبحت لها قداسة الام وبراءتها وحنانها ، وفوجىء ذات لحظة مريرة وهو يفتش عنها ؛ عن رمز البراءة والحب والقداسة فوجىء بها فى موقف أصاب قلبه الصغير بجرح لم يبرأ طوال حياته ، وحتى بعد أن نضج الصبى ، وتغيرت نظرته للموقف ،ظلت آثاره القديمة كامنة تعمل عملها فى حياته وفى فنه !

وفى غمرة الصراع الدائر فى الاعماق ، والذى كاد يشغله عن أى صراع آخر كان يمسك فى يده دائما « بغصن من الزيتون » فى محاوله عنيدة وصلبة لاقرار السلام بين القوى المتنازعة فى القلب البشرى وأحزنه أن السلام لا يجىء ، وان غصن الزيتون وحده هو الذى يسقط فى الوحل ، وفى كل مرة تمتد فيها يده النحيلة المجهدة لتنقذه ، وترتفع به ٠٠ كان يعاود السقوط ، وزاد من شكه وأساه أن ساد حياتنا الادبية حينا نوع من أحادية النظرة والفكرة فتلكا الحوار الدائر بينه وبين هذه الحياة الادبية ثم كاد أن يتوقف ، ولم تكن تلك مشكلته وحده ولكن احساسه بها كان أعمق وأحد ٠٠!

ولكنه ظل يعمل فى كبرياء وصمت ، كبرياء الفلاح المصرى وصمته الذى تعود أن يعطى دائما دون أن يأخذ ودون أن يشكو وسوف يذكر تاريخ الادب له هذا الموقف كأمجد مواقفه الانسانية والادبية !

وحين قضى عبد الحليم عبد الله فى لحظة غضب ، كان ذلك آخر تعبير تركه لنا عن حبه العظيم للحياة فالذين يعشقون الحياة بقوة هم الذين يغضبون منها ولها لانهم يريدونها طيبة وعادلة وكريمة !

ان ديون الحياة الادبية للكاتب الكبير سوف تثقل ضميرها طويلا ، ولعلنا نرد بعض هذه الديون فى وقت قريب باصدار عدد خاص عن أدبه ، من مجلة نادى القصة !!

أما حزننا عليه فسوف يبقى حتى تمتـــد الايدى الشجاعة الى « غصن الزيتون » وترتفع به الى حيث يجب أن يكون فى حياتنا الادبية ، وحيث يبقى الصراع فى حياتنا الادبية حرا وعادلا وشريفا ، آنذاك سوف نبتسم ونهدى الى قبره تلك الابتسامة !!